

شبابك القدس... العراقة والتعددية والانفتاح

عدسة وتعليق: محمود شقير



رغم ما تعانيه القدس من حصار، ومن محاولة لتبديد طابعها العربي الإسلامي المسيحي، تظل المدينة معنيّة ما وسعها ذلك، بالمحافظة على مشهدها الأصيل الذي يراد طمسه وتبديده، وتظل في الوقت نفسه، معنيّة بأن تكون مدينة التعددية والرغبة في الانفتاح، دون أن يقلل ذلك من اهتمامها بمشدها الأصيل.

يتبدى ذلك في العديد من المظاهر التي لا تحتاج إلى دليل، وهو يتبدى على نحو ما في شبابيك المدينة. شبابيك متنوعة ذوات طرز وحجوم وتشكيلات وأشكال متباينة. شبابيك منبثقة من ثقافات عدة، ومن إبداع معماريين من عصور شتى ومن مختلف الجنسيات.

قد تجد صفّاً أفقياً من شبابيك متماثلة، لا فضل لشباك منها على شباك. شبابيك ذوات استطلاات

منتهية بأقواس محدبة تذكر بشكل الهلال، أو بأقواس نصف دائرية. الأقواس قد تذكّر بجتهادات أجدادنا القدماء حينما بنوا أول البيوت وأول الأبواب وأول الشبابيك. كانت أغصان الشجر وسعف النخيل التي انبنت منها أول البيوت تميل إلى التقوس والانحناء. ربما من هناك جاءت الأبواب التي تنتهي في أعاليها بأقواس، وربما من هناك جاءت الشبابيك. فإذا كانت الأبواب هي الحيز المخصص لدخول البشر وخروجهم، فالشبابيك هي الحيز المخصص لدخول أشعة الشمس والهواء. والأقواس التي تنتهي بها أعالي الأبواب والشبابيك قد تحمل دلالات دينية، رغم أن البناية التي تشتمل على هذه الأبواب وتلك الشبابيك ليست مسجداً ولا كنيسة. القوس إحياء بالقبّة، والقبّة رمز للسماء، والسماء منبع للديانات.

في بعض البنايات تجد في الحائط الواحد ثلاثة شبابيك متجاورة، لها استطلاات ذاهبة إلى أعلى، وهي مفتوحة على الخارج،

كما لو أنها تطمح إلى اكتشاف أكبر قدر ممكن من المشهد الخارجي، وهي في الوقت نفسه غير متحفظة تجاه الحيز الداخلي، إنها معنية بكشفه لو أتيحت لها الفرصة لذلك، ويخلق تواصل بينه وبين المشهد الخارجي في التحام لا انفصام فيه.

تأخذ الشبايبك شكلاً حميماً، حيث يكون الشباك الأوسط أكبر حجماً من الشباكين الواقعين عن يمينه ويساره. وبذلك يضيف التماثل وعدم التماثل في المشهد الواحد إحساساً بالوحدة والتنوع في الوقت نفسه، ما يهب الناظرين من أي اتجاه متعة، وما يهب المشهد كله حالة من التعلق بالدنيا وما فيها من متاع.

تجد شباكاً واحداً في حائط بيت قديم. يشد انتباهك لأنه يستحوذ على المشهد وحده، بإطلالته على الشارع المجاور، حيث المازة وأسراب السيارات، ما يجعل المشهد ممتعاً مثيراً لمزيج من المشاعر، فثمة شباك وحيد في حائط، ثمة امتياز من نوع ما، أو ثمة عزلة وانعزال، وثمة تفرّد في محيط من الكثرة الوافرة.

في المسجد وفي الكنيسة تصرّ الشبايبك على حجب الخارج عن الأنظار، ويجري التركيز على الداخل، حيث الانقطاع للعبادة ونسيان الدنيا ولو مؤقتاً والتفرغ للسماء.

ليس غريباً أن يستثمر المقدسيون كل حيز متاح لهم لتحويله إلى غرف للسكن، ولا تلبث أن تظهر في الحيطان القديمة شبايبك مرتجلة، يجري استنباطها لكي تهب مخزناً مكرّساً لاستيعاب الأثاث القديم، أو قبواً مهجوراً لا قيمة له، شيئاً من نور وبصيصاً من حياة. إنه اعتناء لا مثيل له بالحيز الداخلي، أمام ضائقة السكن التي يعاني منها المقدسيون بسبب عسف الاحتلال.

انكفأت الشبايبك على نفسها، وأصبحت مجرد فضاءات لأداء وظائف أولية صممت الشبايبك أصلاً من أجلها، مثل تمرير الهواء إلى داخل البيت وكذلك أشعة الشمس، أو تمرير شحنة من نور حينما لا تكون الشبايبك واقعة في مدى أشعة الشمس، بسبب اكتظاظ العمران في القدس القديمة، ووجود حيطان مغمورة وفيها شبايبك مقموعة لا ترى الشمس ولا تراها الشمس.

لمزيد من الحيلة والحذر، تبدو الشبايبك مزنة بحمايات من الحديد الصلب الذي يتخذ شكل رماح متصالية في أغلب الحالات، ويتخذ شكل زخارف وأشكال هندسية بديعة في القليل من الحالات. هذه الحمايات مكرّسة لحماية البيوت، وهي تعبير عن عدم الثقة في الشبايبك، حتى وإن كانت في أحيان غير قليلة، واقعة في الطوابق العليا.

لكي يكتسب البيت مظهراً متجهماً لا يغري العابثين بأي اقتراب منه، تبدو أباجورات الشبايبك مغلقة في أغلب الأوقات. قد يجري فتحها ساعة أو ساعتين في النهار، ثم تغلق بعد ذلك، ربما لمنع الشمس من تخريب لون الستائر والكتبات وغيرها من أثاث، وربما لمنع الغبار من اقتحام البيت، وربما بسبب الرغبة في تحصين البيت ولو في شكل غير واع لذلك.